العدد الخامس والعشرون
2008

مجلة كلية

الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1376 من وفاة الرسول ﷺ الموافق لعام 2008 مسيحي

- دقة التعبير في نهايات الآيات القرآنية
- الإيقاع النثري (صوره وخصائصه)
- صورة بلنسية في الموروث الأندلسي
- دور الإسلام في التواصل بين مناطق الساحل والصحراء الإفريقية

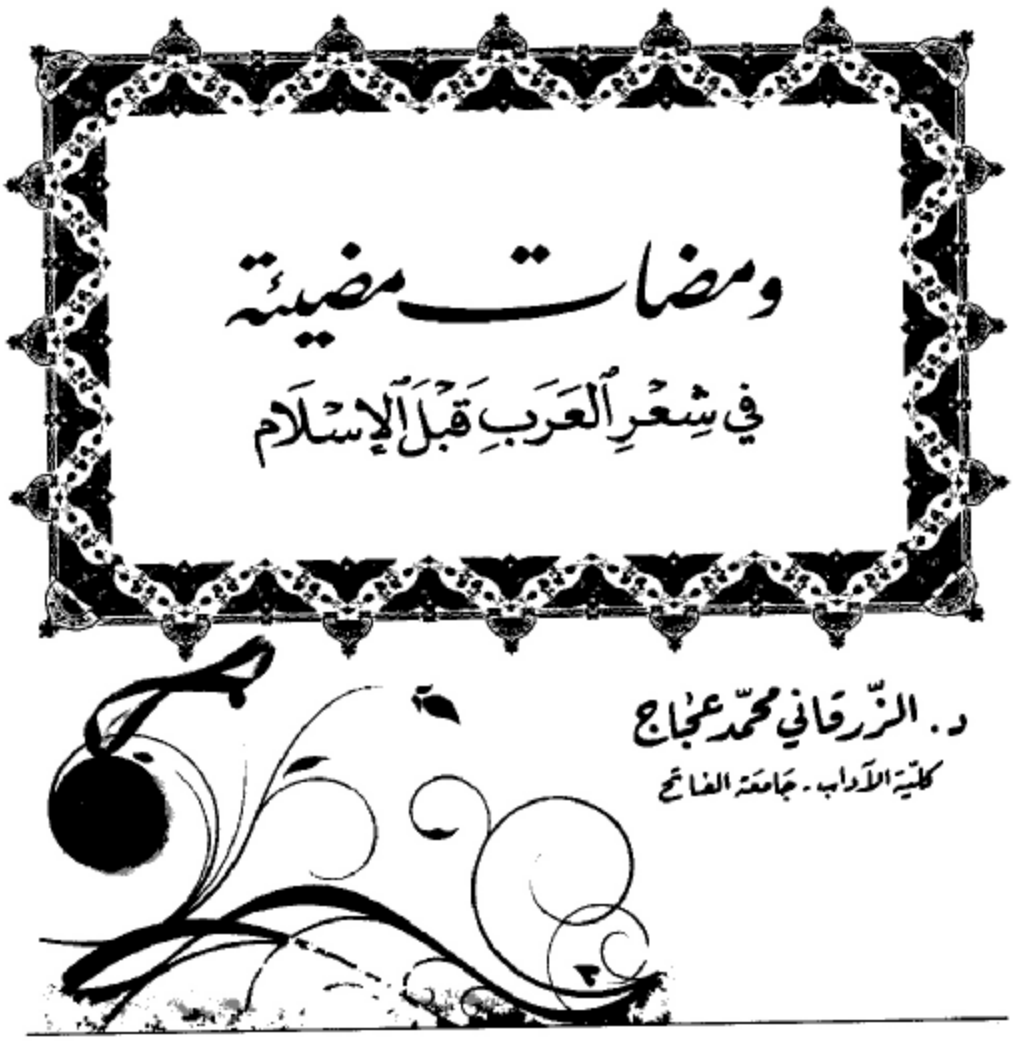

د. الزرقاني محمد عجاج
كلية الآداب - جامعة الفاتح

ليس هناك أدنى شك في أنّ حياة الإنسان العربي قبل ظهور الإسلام كانت مغلفة بظلال من الضبابية الكثيفة، تسودها الفوضى وتغلب عليها أخلاق التكبر والتسلط، والنعرات الجاهلية من الغضب السريع لأتفه الأسباب والمفاخرة بالأنساب «.. ولكن ليس هناك ثمت شكوك أيضاً في أنه كان يتخلل ذلك المجتمع ملامح أصيلة وضاءة من المكارم والمحامد والصفات الطيبة التي تحلى بها العربي والتي جاء الإسلام فتلقفها وهذّبها وصقلها، فجعلت من الإنسان

العربي بعد أن غمرته أنوار الهدى الإسلامي كائناً حضارياً يبشر باليقين ويحمل راية الحق. . . »[1].

ولعل من أبرز الومضات المضيئة التي ترسخت وبرزت في شعر ما قبل الإسلام.

الدعوة إلى الوحدانية ونبذ عبادة الأوثان، فقد وصلت إلينا بعض النصوص الشعرية التي تنال من عبادة الأوثان، والأصنام، الأمر الذي دفع بأحد الباحثين إلى القول بأن العرب في أواخر هذا العصر «كانوا على أبواب يقظة عقلية وروحية، وكانوا في ريعان نهضة أدبية هزت أركان الوثنية هزات كادت تقوضها. . . »[2] فعبيد بن الأبرص مثلاً نراه يهجو بني جديلة ويعيب عليهم صنمهم اليعبوب، فيقول[3]:

وتبدلوا اليعبوب بعد إلههم صنماً فقرّوا يا جديل واعذبوا

وكذلك بشر بن أبي خازم نراه يهجو أسرة آل لأم الطائي حين جعلت من قبر حارثة بن لأم إلهاً يحلفون به حيث يقول[4]:

جعلتم قبر حارثة بن لأم إلهاً تحلفون به فجورا

وبجانب هذا الموقف من شعراء ما قبل الإسلام وهجومهم على عبادة الأصنام والأوثان نلمس فيما وصل إلينا من أشعارهم «إشارات دينية تدل على التوحيد وعلى بعض المعاني الدينية الصحيحة التي جاء بها القرآن الكريم فيما بعد. . . »[5] مثل قول زهير بن أبي سلمى[6]:

---

(1) الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، د. مصطفى الشكعة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط1، 1968م، ص23.

(2) الحياة العربية من الشعر الجاهلي، د. أحمد الحوفي، دار القلم ـ بيروت، ص377.

(3) ديوانه، دار صادر، ص33.

(4) ديوان بشر، تحقيق عزة حسن، ط دمشق، ص8.

(5) دراسات في أدب العرب قبل الإسلام، د. محمد عثمان علي، منشورات الجامعة المفتوحة، ص85.

(6) ديوانه ط، دار بيروت للطباعة والنشر، ص89.

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم حساب أو يعجل فينتقم

وفي البيت الثاني دليل على إيمان زهير بالحساب وبيوم البعث والعقاب، ومثله قول بشر بن أبي خازم[7]:

فعفوت عنهم عفو غير مثرب. . . وتركتهم لحساب يوم سرمدي.

ويمكن أن نضيف في هذا المجال أبيات لأمية بن أبي الصلت التي تدل على مفهومه للخلق والكون، وإيمانه بقدرة الله، يقول[8]:

إنّ آيات ربّنا ثاقبات ما يماري فيهنّ إلا الكفورُ
خلق الليل والنهار فكل مستبين حسابه مقدورُ
ثم يجلو النهار ربٌّ رحيم بمهاة شُعاعها منشورُ

ومثل هذه الإشارات الدينية الصحيحة من بعث وحساب وثواب وعقاب التي جاء «القرآن الكريم مؤكداً لها فيما بعد دفعت عدداً من الباحثين المستشرقين والعرب إلى الشك في صحة نسبتها إلى هؤلاء الشعراء الذين عاشوا وماتوا قبل الإسلام، مع أن واقع الحال يقول بأنها تسربت إلى هؤلاء الشعراء من الديانات السماوية التي كانت موجودة حينذاك والتي لم تكن جزيرة العرب خلواً منها، فقد كانت هناك الحنيفية دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وكانت هناك اليهودية والنصرانية»[9] ولا نصل إلى أواخر العصر الجاهلي حتى نجد استعداداً لفكرة الإله الواحد، وخاصة عند طائفة كانت تدعى باسم الحنفاء، وكانت تشك في الدين الوثني القائم وتلتمس ديناً جديداً يهديها في الحياة[10].

(7) لسان العرب لابن منظور، دار الكتب العلمية، مادة (ثرب).
(8) الروائع من الأدب العربي، المجلس الأعلى للثقافة، 1/ 573.
(9) دراسات في أدب العرب قبل الإسلام، د. محمد عثمان علي، ص86.
(10) ينظر تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ص96.

ومن الجوانب المتلألئة الناصعة في نفوس أصحابها من تاريخ هذه الأمة الحرص الشديد على حماية العرض وافتدائه بالمال والنفس، يقول زهير بن أبي سلمى مؤكداً إصرار العربي على حماية عرضه وشرفه[11].

وأجعل مالي دون عرضي إنني كذلكم مما أفيدُ وأتلفُ

وقال أيضاً[12]:

وأجعل مالي دون عرضي جُنةً لنفسي فأستغني بما كان من فضل

ويقول آخر معلناً عن حرصه على صيانة عرضه بكل ما يملك من مال[13]:

أجودُ بمالي دون عرضي ومن يرد رزية عرضي يعترض دونه النحل
إذا المرء أثرى ثم ضن بماله أبى الناس يوماً أن يكون له الفضل

ومثلما يحرص العربي على صيانة عرضه نراه أيضاً لا يرضى لنفسه أن يهتك أعراض الآخرين، فهو لا يعرض لجارته، بل نراه يغض الطرف حتى يواري جارته مأوها، يقول عنترة[14]:

وأغضُ طرفي ما بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها
إنّي امرؤ سمحُ الخليقة ماجدٌ لا أتبع النفس الطموح هواها

أما عروة بن الورد، فقد كان يتغافل حتى تلج جارته بيتها[15]:

وإن جارتي ألوت رياح بيتها تغافلت حتى يستر البيت جانبه

وأكد على ذلك حاتم الطائي بالقسم، فقال[16]:

(11) ديوانه، ص104.
(12) المصدر نفسه، ص104.
(13) الحماسة البصرية، دار الكتب العلمية، 2/ 79.
(14) ديوانه، دار صادر، ص71.
(15) ديوانه، دار العلم للطباعة، ص30.
(16) ديوانه، دار صادر، ص48.

فأقسمتُ لا أمشي إلى سرّ جارة مدى الدهر، ما دام الحمامُ يغرّد

وإذا نظرنا في هذه الأبيات للشاعر الحاذرة بن قطبة نراه يأخذ في تعداد صفاته السامية النبيلة، وهي لا تنطبق عليه وحده، بل هي في الحقيقة مثل عربية عليا يفخر بها الإنسان العربي، وتتمثل في البعد عن الفواحش، والتزام العفة، وتجنب العيب، والصبر على الشدائد والمكروه، والتجمل عند الرزيئة، فيقول[17]:

أدعُ الفواحش أنْ أُسَبَّ بها وشريكها فكيلهما أقلى[18]
ووجدتُ آبائي لهم خُلق عفُّ الشمائل غيرُ ذي دخل[19]
لو تصدقين لقلت إنّهم صبُرٌ على النجدات والأزل[20]
وعلى الرزية من نفوسهم وتلاتل اللزيات والقتل[21]

ومثلة قول دريد بن الصمة[22]:

كميشُ الإزرار خارج نصف ساقه صبور على العزاء طلاع أنجد[23]
رئيس حروب لا يزال ربيئة مشيحاً على محقوقف الصلب ملبد
صبورٌ على رزء المصائب حافظٌ من اليوم أدبار الأحاديث في غد

فهو ماضي العزم في اتخاذ قراراته لا يعرف التردد في المواقف التي تستدعي قوة الحسم وحسن الاستعداد، صبور في مواجهة الحروب وما ينتج عنها من مصائب، ومن المواقف المضيئة والخالدة التي كان الشاعر الجاهلي يجسدها ويفتخر بها في شعره حبة للفروسية وركوب الخيل في وقت الحرب

(17) الروائع من الأدب العربي، 1/ 515.
(18) أقلى: أكره.
(19) الدخل: العيب.
(20) الأزل: الضيق.
(21) التلاتل: الزلازل، اللزيات: الأزمنة الشديدة.
(22) ديوانه، ص35.
(23) الكميش: الماضي العزم في اتخاذ قراراته.

والسلم، فالفرس كان عدته الأولى في وقت الحرب وشن الغارات، كما كان يمثل وسيلته المحببة إذا أراد الخروج في رحلات صيده التي تمثل ترفه وإشباع لذاته مع الصحب والرفاق، فالفروسية في هذه المرحلة «لا تقف عند الشجاعة والبطولة والمخاطرة فحسب، وإنما تتجاوز هذا الجانب الحسي إلى جانب آخر معنوي تنطوي تحته كل القيم الخلقية الرفيعة التي تشكل مجموعة المثل العليا التي كان العرب يعتزون بها في هذا العصر كالكرم والنجدة والمروءة. . .»[24].

ولم يكن يعدل فرحة القبيلة بشاعرها إلا فرحتها «بغلام يولد أو فرس تنتج»[25] لأنهما يكوّنان فارس القبيلة المنشود وبطلها المنتظر، ولقد كان من أرفع ألقاب التمجيد، وأسمى أوسمة الشرف التي يضفيها المجتمع الجاهلي على أحد أفراده، أن ينعته بأنه «شاعر فارس»[26] وهذا ما يفصح عنه عنترة في هذه الأبيات الحماسية التي يقول فيها[27]:

لما رأيت القوم أقبل جمعهم ... يتذامرون كررت غير مَذمّم
يدعون عنتر والرّماح كأنها ... أشطان بئر في لبان الأدهم[28]
ما زلت أرميهم بثغرة نحره ... ولبانة حتى تسربل بالدّم
فازورّ من وقع القنا بلبانه ... وشكا إليّ بعبرة وتحمحم[29]
ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها ... قيل الفوارس ويك عنتر أقدم

ومن النصوص الشعرية التي نلمس فيها التغني بالشجاعة وقوة البأس في ميادين الوغى هذه الأبيات لسهل بن شيبان[30]:

(24) دراسات في الشعر الجاهلي، د. يوسف خليف، مكتبة غريب، ص161.
(25) العمدة لابن (رشيق) دار الجيل 1/ 99.
(26) دراسات في الشعر الجاهلي، د. يوسف خليف، ص174.
(27) ديوانه، دار الباز للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ص126.
(28) الأشطان، جمع شطن، وهو حبل البئر، واللبان: الصدر والأدهم: فرسه.
(29) ازوَّر: مال، والتحمحم: صوت منقطع ليس بالصهيل.
(30) الروائع من الأدب العربي 1/ 35.

مشينا مشية الليث غدا والليث غضبان
بضرب فيه توهين وتخضيعٌ وإقران
وطعن كفم الزقِّ غذا والزق ملآن

فيقول: سعينا إليهم مشية الأسد وهو جائع، بضرب فيه توهين وإذلال للمضروب، وطعناهم طعنات واسعة تسيل منها الدماء كفم الزق إذا سال بما فيه وهو مملوء.

والشعر الذي تغنى فيه شعراء هذا الطور بالشجاعة وبث روح الحماسة في نفوس الأبطال كثير تفيض به دواوين هؤلاء الشعراء، ومنه قول بشامة النهشلي[31]:

إن تبتدرْ غايةٌ يوماً لمكرمة تلق السوابت منا والمصلينا
ليس يهلك منّا سيّدٌ أبداً إلا افتلينا غلاماً سيداً فينا[32]
إنّا لنُرخصُ يوم الرّوع أنفسنا ولو نسامُ بها في الأمن أغلينا[33]

فالشاعر يفتخر بكثرة قادتهم، ولا يحتاجون إلى الاستعانة بغيرهم إذا فقدوا سيداً من سادتهم، وأنهم يبذلون أنفسهم في الحروب وهذا لحرصهم على تخليد الذكر الجميل، والإبانة عن محلّ النفس في الشجاعة.. وما أحوجنا في هذا الزمان لمثل هذه الصفات حتى نذود عن حمى الدين والعرض والشرف وحماية أوطان المسلمين التي تنتهك وتدنس في كل يوم من قبل الأعداء الحاقدين.

ولقد برز من بين شعراء هذه المرحلة من كان يدعو العرب إلى التوحد وجمع الشمل، في زمن كانت شبه الجزيرة فيه تعيش أحداثاً جساماً حركتها مطامع الروم والفرس في السيطرة على العرب، مستغلين في ذلك المناذرة

(31) المرجع نفسه، 1/ 103.
(32) الافتلاء: الافتظام والأخذ عن الأمر.
(33) أغلينا: الألف للإطلاق، وأغلين وجدت غالية.

والغساسنة على حد سواء في إثارة الاضطرابات بين القبائل العربية، وبث عوامل الفرقة والشقاق بينهما، حتى تحقق بذلك الهيمنة الكاملة عليها.

ولقد انعكس صراع هاتين الدولتين منذ ذلك على حياة بعض شعراء إياد، فكان الشعر الذي خلفه هؤلاء الشعراء معلماً بارزاً يدل على شعراء إياد وغيرهم من القبائل العربية الأخرى، قد أدركوا بوعيهم المتطور أن الوقوف في وجه مطامع هاتين الدولتين ـ وبخاصة في الشرق حيث الفرس ـ لا يمكن أن يتكامل، ويكون له أثره إلا بوحدة القبائل التي كانت تعيش في بوادي العراق وبين دجلة والفرات، ومن هنا سجلت أشعار لقيط بن يعمر الإيادي مؤشراً طيباً وصفحة مضيئة في هذا الخصوص، فنراه يوجه إليهم من خلال عينيته المشهورة التي تعد من أقوى القصائد التي قيلت في التحريض والاستعداد للحرب، هذه النصائح التي دعاهم فيها إلى التوحد، وحذرهم من الفرقة والتشتت، وأخبرهم عن زحف جيوش فارس نحوهم بجموع ضخمة تستخف بالحصون مسرعة لا يعوقها في طريقها شيء مستعدة تهيئ سلاحها وتشحذه، وحذرهم من خطر الهزيمة التي تلحق بهم العار إلى الأبد، ودعاهم إلى الصبر والثبات في ميدان المعركة، إن أرادوا لأنفسهم الحياة[34].

يا لهف نفسي إن كانت أموركم ... شتى وأبرم أمرُ الناس فاجتمعا
أحرار فارس أبناءالملوك لهم ... من الجموع جموعٌ تزدهي القلعا[35]
فهم سراع إليكم، بين ملتقط ... شوكاً وآخر يجني الصاب والسلعا[36]
هو الجلاء الذي تبقى مذلته ... إن طار طائركم يوماً وإن وقعا
قوموا قياماً على أمشاط أرجلكم ... ثم افزعوا، قد ينال الأمن من فزعا

ويضع لقيط في هذه القصيدة الصفات التي يجب توافرها في القائد

(34) ديوان لقيط بن يعمر الإيادي، ط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص221.
(35) تزدهي: تتهاون بها وتستخف، القلعا، جمع قلعة وهي الحصن.
(36) الصاب والسلع: شجران مران.

المحارب الذي يجب أن يولوه أمرهم ليقودهم نحو مواطن النصر، لا بد أن يكون واسع الصدر خبيراً يفنون الحرب، إذا أقبلت عليه الدنيا لا يتخلى عن خشونة الجندي المحارب، ولا يركن إلى ترف يميت الرجولة، ويفتت العزائم، ويشيع الجبن، وإذا حاقت به الهزيمة صمد في موقعه، وهب فكره لقومه، فلا يهتم بمال يثمّره، ولا ثروات يجمعها أو ضياع يقتنيها، وليست له أسرة تشغله أو تستغل نفوذه، وما يهدم القائد أو الزعيم كمطامح أهله ومفاسد حاشيته، كثير العمل قليل النوم، تتوزعه هموم قومه، يعرف عدوه، ويحسن الإفادة من تجاربه، خبر الأيام حلوها ومرها، خيرها وشرها، لين العريكة، قوي الشكيمة، فتى جلد، يصارع المحن، ولا يذل أمامها[37].

وقلّدُوا أمركم، لله دركم ... رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
لا مترفاً إن رخاءُ العيش ساعده ... ولا إذا عضَّ مكروه به خشعا
وليس يشغله مالٌ يثمرهُ ... عنكم، ولا ولد يبني له الرَّفعا
لا يطعم النوم إلا ريث، يبعثه ... همٌ يكاد سناه يقصم الضّلعا
مُسهد النَّوم تعنيه أموركم ... يروم منها إلى الأعداء مطلعا
ما انفكَّ يجلب در" الدهر أشطره ... يكون متبعاً طوراً ومتبعا
حتى استمرتْ على شزر مريرته ... مستحكم السنّ لا قحماً ولا ضرعاً[38]

ومن المواقف الإنسانية الخالدة في شعرنا العربي القديم وقد جاء الإسلام مؤكداً لها، التجاوز عن حقد الحاقدين من الحسّاد والمنافقين ومقابلة الإساءة بالإحسان والصفح عند المقدرة، يقول حاتم الطائي مجسداً هذه المعاني الإنسانية النبيلة[39].

وكلمة حاسدٍ من غير جُرم ... سمعتُ فقلتُ: مُرّى فأنفذيني

(37) ديوانه، ص47، وينظر امرؤ القيس، حياته وشعره، د. الطاهر مكي، ص155، ومختارات ابن الشجري، ص5.
(38) الشزر: الذي يفتل وجهه فتلاً مقلوباً، مريرته: أي فتل فتلاً شديداً.
(39) الروائع من الأدب العربي، 1/ 479.

وعابوها عليّ فلم تعبني ولم يعرق لها يوماً جبيني
وذي وجهين يلقاني طليقا وليس إذا تغيّب يأتسيني
نظرتُ بعينه فكففتُ عنه محافظة على حسبي ودِيني[40]

ولعل من الصفحات المضيئة التي برزت في شعر هذا الطور، وكانت نتيجة طبيعية لخلق التسامح والعفو، إلى السلام ونبذ العداوة والحرب والعنف بين القبائل العربية التي كانت سائدة في هذه المرحلة من حياة العرب، حيث يبرز أكثر من شاعر بهذا الصوت المدوي الداعي إلى التوحد والسلام ومدح دعاة الوفاق والصلح بين القبائل العربية، وهذا ما نلمسه في مطولة زهير بن أبي سلمى في مدحه لرجلين مصلحين تفضلا بحقن الدماء، فدفعا ديات القتلى في الحرب التي دارت بين قبيلتين عربيتين هما (عبس وذبيان) والتي عرفت بحرب (داحس والغبراء).

فانظر إليه في هذه الأبيات كيف يمدح الرجلين ويثني على ما قاما به إصلاح ذات البين، فيقول[41]:

يميناً لنعم السيّدان وجُدتُما على كل حال من سحيل ومبرم[42]
تداركتما عبْساً وذبيان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم
وقد قلتما إنْ ندرك السِّلم واسعاً بمالٍ ومعروف من القول نسلم
فأصبحتما منها على خير موطن بعيدين فيها من عقوق ومأثم
عظيمين في عُليا معدّ هديتما ومن يستبح كنزاً من المجد يعظُم

فهو كما ترى يبتدئ هذه الأبيات بالقسم ـ امتداحاً للرجلين ـ بأنهما خير الناس في حالتي الرخاء والشدة، والسراء والضراء، لقد حازا رتبة الشرف العليا، إذ تلافيا أمر هاتين القبليتين، بعد ان أفنى القتال رجالهما، وبعد أن دقوا

(40) ديني: عبادتي وخلقي.
(41) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، صنعة أبي العباس ثعلب، دار الآفاق الجديدة، ص23.
(42) السحيل: الطاقة، والمبرم: المفتول.

بينهما عطر منشم، وهو مثل يضرب في شدة التشاؤم، وانتشار الشر بين القوم، يشير إلى قرارهما بحمل الديات وعزمهما على ما سعيا إليه من الصلح، فقد قالا: لئن بذلنا المال لشراء دماء القتلى، إننا ننقذ العشائر من أن تتفانى فيما بينها[43].

والحق أن زهيراً كان في هذه الأبيات داعية سلام فهو يصور الحرب في صورة مخيفة وقبيحة، فهي تارة أسد ضار، وتارة ثانية نار مشتعلة، وتارة ثالثة رحى تطحن الناس، وتارة رابعة أنثى تلد، ولكنها لا تلد إلا ذراري شؤم[44].

وما الحربُ إلا ما علمتم وذقتم ... وما هو عنها بالحديث المرجّم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة ... وتضر إذا ضريتموها فتضرم
فتعرككم عرك الرَّحى بثفالها ... وتلقح كشافاً ثم تنتج فتتئم
فتنتج لكم غلمان أشأم كلّهم ... كأحمر عاد ثم تُرضع فتفطم

ومن أجل هذه المعاني النبيلة والقيم الإنسانية الرفيعة التي تبرز في هذه الأبيات يعد زهيراً من وجهة النظر الإنسانية شاعر البر والرحمة والنزعة القوية إلى الخير والحكمة.

ومن المثل الإنسانية الخالدة التي يكشف عنها ما وصل إلينا من شعر هذه المرحلة ما سجله بعض الشعراء من مواقف الفخر والاعتزاز بقبائلهم من حيث حرصها على تقديم يد العون وإغاثة المستغيث، فهي رهن الإشارة، يكفي أن يستنجدها الفرد في أي ظرف من الظروف، ومهما تكن مشكلته، فإذا هي تهب على بكرة أبيها لنصرته ونجدته، لا يسألونه برهاناً على ما يقول أو دليلاً عليه، وإنما تكون إجابته «قرع الظنابيب» كما يقول سلامة بن جندل[45].

(43) ينظر شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، ص23 ـ 24.
(44) المصدر نفسه، ص25 ـ 27.
(45) المفضليات، للمفضل الضبي، مفضلية رق 22.

كـنـا إذ مـا أتـانـا صـارخ فـزغ كان الصراخ له قرع الظنابيب[46]

ومثله قول قريظ بن أنيف من شعراء بلعنبر[47]:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا

يقول: هؤلاء لحسن محافظتهم وقوة تناهيهم في نصرة من يستغيث بهم لا يسألون الداعي إذا دعاهم حجة على دعواه، ولا يراجعونه في كيفية ما ألجأه إليهم، ومنه قول الحاذرة بن قطبة[48]:

وينفسون عن المضاف إذا نظر الفوارسُ عورة الرّجل
المقبلين نحور خيلهم حدّ الرماح وغبية النبل

ويقول وداك بن ثميل المازني[49]:

إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم لأية حرب أم بأي مكان

ومما أوردناه من شواهد، ندرك أن الشعراء في فترة ما قبل الإسلام يجسدون في شعرهم عدداً من الخصال والقيم الإنسانية التي كانت قبائلهم تعتز وتفخر بها.

ويمكننا أن نضيف إلى ما أوردناه من خصال عربية أصيلة وراسخة في تراثنا الشعري، سمة حماية الجار والحفاظ على عزته وكرامته وعدم إلحاق الذل والهوان به، يقول السموأل بن عاديا[50]:

وما قلَّ من كانت بقاياه مثلنا شبابٌ تسامى للعُلا وكهولُ
وما ضرّنا أنّا قليلٌ وجارنا عزيزٌ وجارُ الأكثرين ذليلُ
لنا جبلٌ يحتله من نجيره منيعٌ يردُّ الطرف وهو كليلُ

(46) الظنابيب: عظام السيقان.
(47) شرح ديوان الحماسة، لأبي علي المرزوقي، دار الجيل 1/ 29.
(48) الروائع من الشعر العربي، 1/ 516.
(49) شرح ديوان الحماسة، للمرزوقي، 1/ 30.
(50) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي، 1/ 112.

فهو يشير بذكر الجبل إلى العز والسمو، فيقول:

لنا جبل عزّ يدخله من ندخله في جوارنا، ممتنع على طالبه، يرد لإشرافه وسموقه طرف الناظر إليه وهو حسير[51].

وتخبرنا كتب الأدب القديم بأن العرب يذمون الغدر ويمدحون صفة الوفاء، لأن الغدر ترك الوفاء، وقالوا كان الرجل في الجاهلية إذا غدر رفعوا له في مجامعهم لواء ليعرف الناس أنه غادر، وذلك إعلاناً لرفض الجماعة لخلق الغدر وإنكاراً لخلق الغادر، وتأديباً لهذه النفوس التي لا ترعى خلق الوفاء، وهذا يدل على حفاظهم وحرصهم في تثبيت هذه المبادئ وصيانتها[52].

وكتب الأدب العربي ـ أيضاً ـ تحفل بشعر عدد من الشعراء الذين عرفوا بتأصيل مسلك الكرم والسخاء وصنع المآدب ودعوة عامة الناس إليها، يقول طرفة[53]:

نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الآدب فينا ينتقر[54]

ومن ذلك هذه الأبيات لحاتم الطائي التي تحكي شخصه، وتصور ما اقتنع به في فلسفة حياته الخاصة، وبما حفلت به من اعتزاز بالسخاء والبذل والعفة والوفاء والصدق في القول والفعل معاً، يقول[55]:

سلي الأقوام يا ماويّ عنّي وإن لم تسأليهم فاسأليني
بأني لا يهرّ الكلبُ ضيفي ولا تقضى نجيُّ القوم دوني[56]
ولا أعتلُّ من فنع بمنع إذا نابتْ نوائب تعتريني[57]

(51) المصدر نفسه 1/ 113.
(52) ينظر قراءة في الأدب القديم، د. أبو موسى، دار الفكر العربي، ط1، 1978، ص30.
(53) ديوانه، ط الأنجلو المصرية، ص79.
(54) المشتاة: وقت الشتاء، والجفلى: الدعوة العامة، ينتقر: يختار من يدعوهم لطعامه.
(55) الروائع من الأدب العربي 1/ 478.
(56) هرير الكلب: صوته دون نباحه.
(57) الفنع: الخير والكرم والفضل وحسن الذكر والسمعة الطيبة.

ومثله قول السموأل في هذه اللوحة الفنية الرائعة[58].

فنحن كما المزن ما في نصابنا كهامٌ ولا فينا يُعدُّ بخيلُ
وما أُخمدتْ نارٌ لنا دون طارق ولا ذمّنا في النازلين نزيلُ

أي ليس فينا كليل الجدّ، ولكن كلّ منا ماض نافذ، ولا فينا بخيل فيعدّ، ونديم إيقاد النار فلا تطفأ دون طارق ليل، والضيف إذا فارقنا حمدنا وأثنى علينا ولم يذمنا لحسن توفرنا عليه واحتفالنا عند سوق الخير إليه.

ويقول زهير بن أبي سلمى في مدح هرم بن سنان

أخي ثقة لا تتلف الخمرُ ماله ولكنه قد يهلكُ المال نائلُهْ
تراه إذا ما جئته متهللاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله

فهذا الممدوح نال المدح والثناء، لأنه يخالف الآخرين من حيث الشعور بالغضب والندم عند الاتفاق الذي يدعون أنه يتلف أموالهم، أما هو فيشعر بأريحية ورضا نفس تبدو ملامحها ظاهرة على محيا وجهه وثغره الباسم.

إنه من أجل ذلك يستحق الثناء والمدح ويحظى بالذكر الطيب والسمعة الحسنة.

وحاتم الطائي يخاطب زوجه (نوار)، التي تلومه على إنفاق ماله في صلته للرحم من أقاربه[59]:

يرى البخيلُ سبيل المال واحدة إنّ الجواد يرى في ماله سبلا
لا تعذليني على مال وصلتُ به رحماً وخير سبيل المال ما وصلا

ويفيض شعر ما قبل الإسلام بألوان من المواقف الإنسانية الناصعة، وتعد قضية الثورة على الظلم وإعادة توزيع الثروة بين أبناء المجتمع وتحقيق التكافل الاجتماعي وتطبيق مبدأ الاشتراكية من ضمن القضايا والمثل الإنسانية التي

(58) ديوانه، ص68.
(59) ديوانه، ص106.

برزت في تراثنا الشعري. . . ولعل من أوائل الشعراء الذين طبقوا هذا المبدأ وترسخت فيه قيمه فيما وصل إلينا من نتاجهم الشعري (عروة بن الورد) الذي يلقب بأبي الصعاليك، فهو من بين أوائل الشعراء الذين تمردوا على الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، والإحساس بالظلم الذي تعاني منه الطبقة المستضعفة في هذا المجتمع من الفقراء والعبيد، وانتهت به إلى زعامة جماعات من الصعاليك التفت حوله وانطلقت معه للإغارة على الأغنياء وخاصة البخلاء منهم، يسلبون وينهبون ويوزعون ما يغنمونه بينهم بالتساوي، ويشركون معهم في الغنيمة الفقراء الضعاف والمرضى الذين عجزوا عن الخروج معهم، في محاولة ثورية عنيفة لتحقيق صورة من العدالة الاجتماعية، ولون من التوازن الاقتصادي، في مجتمعهم الذي اختلت في نظرهم مقاييسه الاجتماعية، واضطربت موازينه الاقتصادية[60] فيقول[61]:

لحى الله صعلوكاً إذا جنّ ليلة ... مضى في المشاش آلفاً كلّ مجزر[62]

يُعدّ الغنى من دهره كلّ ليلة ... أصاب قراها من صديق مُيسّر

قليل التماس المال إلا لنفسه ... إذا هو أضحى كالعريش المجوّر[63]

ينام عشاءً ثم يصبح قاعداً ... يحتّ الحصى عن جنبه المتعفّر[64]

ولكنّ صعلوكاً صفيحة وجهه ... كضوء شهاب القابس المتنور

مطلاً على أعدائه يزجرونه ... بساحتهم زجر المنيح المشهّر[65]

فذلك إن يلق المنية يلقها ... حميماً وإن يستغن يوماً فأجدر

فهو لا يرضيه الصعلوك الخامل الذي لا يسعى لالتماس المال، وإنما

(60) ينظر الروائع من الأدب العربي 1/ 483.

(61) المرجع نفسه 1/ 484.

(62) لحي: كلمة تستعمل في السب وأصله اللوم، والمشاش، كل عظم هشم ذميم.

(63) العريش: خيمة من خشب أو جريدة، المجوّر: الساقط.

(64) يحث الحصى: أي يسقطه، والحصى: التراب.

(65) المنيح: الذي لا يعتد به.

يريده أن يكون غازياً جريئاً يخشاه الناس في المحضر والمغيب لا يأمنون شن غاراته حتى وإن أدى به الأمر إلى أن يفقد حياته أو يعيش عزيزاً كريماً.

وخلاصة القول: إن حياة العرب في هذا الطور لم تكن يغلب عليها في كل الأحوال والمواقف حياة النزق والطيش والتهور، ولم يكن العرب يعيشون في جاهلية جهلاء وضلالة عمياء، كما تصورهم بعض الأقلام المغرضة، وإنما تجسدت في شعر شعرائهم صفحات إنسانية بالحياة تمثلت في الدعوة إلى الوحدانية ونبذ عبادة الأوثان، وحماية العرض والشرف، ونبذ بعض الآفات الاجتماعية، والشجاعة والفروسية والنجدة والكرم والعفة، وحفظ الجوار، والبر بالعشيرة والأقربين، والدعوة إلى التوحد، وإصلاح ذات البين، ونبذ العنف والدعوة إلى السلام والصلح بين المتخاصمين والنضال من أجل تحقيق مبدأ التكافل الاجتماعي والدعوة إلى العدل والمساواة بين الناس.

* * *

مصادر ومراجع البحث

1 ـ **الأدب في موكب الحضارة الإسلامية**، د. مصطفى الشكعة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط1، 1968م.

2 ـ **امرؤ القيس**، حياته وشعره، د. الطاهر مكي، ط، دار المعارف بمصر.

3 ـ **تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي)** د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر.

4 ـ **الحماسة البصرية**، دار الكتب العلمية، بيروت.

5 ـ **الحياة العربية من الشعر الجاهلي**، د. يوسف خليف، مكتبة غريب.

6 ـ **دراسات في أدب العرب قبل الإسلام**، د. محمد عثمان علي، منشورات الجامعة المفتوحة.

7 ـ **دراسات في الشعر الجاهلي**، د يوسف خليف، مكتبة غريب.

8 ـ **ديوان بشر بن أبي حازم**، تحقيق عزة حسن، ط، دمشق.

9 ـ **ديوان حاتم الطائي**، دار صادر، بيروت.

10 ـ **ديوان دريد بن الصمة**، دار بيروت للطباعة والنشر.

11 ـ **ديوان زهير بن أبي سلمى**، دار بيروت للطباعة والنشر.

12 ـ **ديوان طرفة بن العبد**، ط، الأنجلو المصرية.

13 ـ **ديوان عبيد بن الأبرص**، دار صادر، بيروت.

14 ـ **ديوان عروة بن الورد**، دار العلم للطباعة والنشر.

15 ـ **ديوان عنترة**، دار صادر، بيروت.

16 ـ **ديوان لقيط بن يعمر الأيادي**، ط، مؤسسة الرسالة، بيروت.

17 ـ **الروائع من الأدب العربي**، (العصر الجاهلي) المجلس الأعلى للثقافة، مصر.

18 ـ **شرح ديوان الحماسة**، لأبي علي المرزوقي، دار الجيل.

19 ـ **شرح ديوان زهير بن أبي سلمى**، صنعة أبي العباس ثعلب، دار الآفاق الجديدة.

20 ـ **العمدة في محاسن الشعر ونقده**، لابن رشيق القيرواني، دار الجيل.

21 ـ **قراءة في الأدب القديم**، د. أبو موسى، ط، دار الفكر العربي.

22 ـ **لسان العرب**، لابن منظور، دار الكتب العلمية، بيروت.

23 ـ **مختارات ابن الشجر**، ط، دار الكتب العلمية.

24 ـ **المفضليات**، للمفضل الضبي، ط، دار المعارف بمصر.